مجلة العلوم الإنسانية لجامعة أم البواقي
ISSN 1112-9255
المجلد7،العدد3 – ديسمبر 2020
OEB Univ. Publish. Co.

النظرية البنائية في بحوث الاتصال: المرجعيات،الأسس والتيارات

The constructivist theory in communication studies: Backgrounds, founds and trends

نورالدين هميسي*، جامعة سطيف -2-، الجزائر.
Noureddine_hamici@yahoo.fr

تاريخ التسليم:(2019/09/19)، تاريخ المراجعة:(2020/03/19)،تاريخ القبول:(2020/05/12)

ملخص :

تبحث هذه المقالة في إمكانية الحديث عن نظرية بنائية في مجال دراسات الإعلام والاتصال، التي بقيت لزمن طويل خاضعة للصراع الثنائي بين باراديغمي الوظيفية والنقدية. لقد أضحى التفكير البنائي مستحوذا على مساحات واسعة من البحث في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية بفضل قدرته على تجاوز هذا الصراع، وفي ضوء ذلك فإنه يمكن الإفادة من ذلك في إضفاء صبغة جديدة على نظرية الاتصال ومنحها جرعة جديدة تمكنها من مواكبة التحولات في الفكر الإنساني المعاصر .

الكلمات المفتاحية: باراديغم، بنائية، بنائية اجتماعية، نظرية، اتصال، صورة.

Abstract :

This article aims to project the possibility of a constructivist theory in the field of communication studies. For a long time, communication research has been dominated by the controversy between two paradigms: functionalism and the critical approach. Constructivism has also captured large areas of research in the human and social sciences through its ability to overcome this conflict, and in light of all this, constructivism has proved its efficacy in giving a new twist to the communication theory and injecting it with a new vision that has allowed it to catch up with the evolution of contemporary thought.

Keywords: Paradigm, constructivism, social constructivism, theory, communication, image.

* **المؤلف المراسل: نورالدين هميسي ،الإيميل: Noureddine_hamici@yahoo.fr**

مقدمة:

تتعدد البارادیغمات المتاحة للباحثين في علوم الإعلام والاتصال، بحيث يوفر كل باراديغم افتراضات وأدوات منهجية متميزة تساعد الباحث في مقاربة الظواهر التي يدرسها بما يساعد على استخلاص نتائج ذات قيمة. ويلاحظ على علوم الإعلام والاتصال تاريخيا غلبة الفكر الوظيفي الذي كان له الفضل الكبير في نشأة التخصص بأكمله، بالإضافة إلى الفكر النقدي الذي شكل خطا موازيا لكل الطروحات الوظيفية وأسس لصراع نظري دائم معها.

لكن مع التحولات التي عرفها الفكر المعاصر، وخصوصا مع ما أصبح يعرف بـ"المنعرج الألسني"، وجدت نظرية الاتصال نفسها أمام إمكانيات جديدة، فبعد تطور اللسانيات وانتقال البنيوية إلى عهد ما بعده البنيوية، برز للوجود باراديغم جديد واسع النطاق ومتشعب التخصصات، أطلق عليه النموذج البنائي le constructivisme، وهو نموذج يستفيد من النقلة النوعية التي حصلت في الإبستيمولوجيا ونظرية المعرفة والفلسفة، والتي قامت على تجاوز مفاهيم النسق والبنية والمؤسسة والفعل ووظيفة التفسير التي لطالما هيمنت على النظرية الكلاسيكية، واتجهت بدلا من ذلك إلى وظيفة الفهم القائمة على النسبية التاريخية للأفعال والتأسيس المستمر للظواهر من خلال اللغة والرموز.

اقترحت هذه النقلة على نظرية الاتصال وظيفة جديدة وأساليب مبتكرة في التفكير نحو وظيفة الاتصال في أبعادها الاجتماعية، حيث أضحى ينظر لها لا كنسق تحتي، وإنما كوسيلة لبناء الحياة الاجتماعية، يتم في إطارها مباشرة الممارسات التي تنجز لغايات ونوايا لا يفهمها إلا الفاعلون القائمون بها، وبالتالي فإن النظرية لا تقوم بأي دور تفسيري، بل بدور تأويلي انعكاسي يترجم فهم الفاعلين لواقعهم الخاضع للبناء باستمرار، وبذلك فإن أفعال الاتصال تصبح المادة الأساسية لأي بحث اجتماعي.

2. الأسس الإبستيمولوجية والفلسفية للفكر البنائي: من ناحية المبدأ، تتسم البنائية بأنها من المداخل التي تضع الفهم أساسا للمعرفة، وليس التفسير الذي يمثل أساس الوظيفية. والبنائية كذلك إبستيمولوجيا تكوينية أو تطورية Epistémologie génétique، وهي إبستيمولوجيا تهتم في العمق بطرق وآليات تطور المعرفة الإنسانية والطبيعة المثالية والجوهرية substantielle للواقع، بالإضافة إلى تسلسل الوقائع ضمن حلقات تاريخية متتابعة تشكل المعارف قاعدتها والرابط الأساسي بينها، بحيث لا يمكن فهم ظاهرة من الظواهر بمعزل عن ظاهرة سابقة عليها لأن البنية الذهنية والمعرفية للفرد المتشكلة تاريخيا تسمح له بالانخراط ضمن عمليات اجتماعية معينة (Littlejohn & Foss,2009.pp179-180).

ولكن على خلاف بعض البارادیغمات، تمتاز البنائية بأنها خطاب معرفي، أو كما يقول جون لويس لوموانى خطابا حول أسس المعرفة العلمية ونظرية عامة في المعرفة (Chevalier,2004.p **6**)، وهذا تأكيد على الطابع الإبستيمولوجي لهذا البارادیغم على الرغم من أن استخدامه في حقل البحث الاجتماعي ضمن ما يعرف بالبنائية الاجتماعية يبين قدراته الفائقة على توظيف هذه الإبستيمولوجيا لتفسير الواقع بطريقة مضادة تماما للطرح الوضعي الذي يهيمن بقوة على العلوم الاجتماعية

(Gauthier,2004.p17)، ذلك أن البنائيين لا يؤمنون بمبدأ الموضوعية والفصل التعسفي بين الحقيقة وبين الوعي الإنساني ومصالح الفاعلين (Donsbach, 2008.p944).

ترجع الريادة التاريخية لهذا النوع من الإبستيمولوجيات إلى عالم النفس السويسري جون بياجيه وبحوثه في علم نفس النمو وعلم النفس المعرفي، غير أن هناك من يرجع أصول هذا النموذج التحليلي إلى فترة زمنية أبعد بكثير، وبالتحديد إلى الفلسفة اليونانية. وما يعاب على الباراديغم البنائي مثل غيره من البناءات أنه ليس عقيدة علمية واحدة بقدر ما هو إطار جامع للعديد من التيارات والمدارس البنائية التي تتقارب فيما بينها عند المستويات الإبستيمولوجية العامة، غير أنها تتباعد عند المستويات الخاصة بكل حقل للبحث وتطور وجهات نظر قد تختلف لدرجات كبيرة (Abercrombie,2006.p353).

نجد في الفلسفة اليونانية بواكير مثل هذا التحليل، فيحيلنا توم ريكمور مثلا إلى سيادة فكرة البناء عبر تلك العلاقة بين الفكر والفعل وقابلية إدراك الأشياء قبل إنجازها، فأفلاطون مثلا كان يقدم الهندسة على أساس أنها نموذج للتفكير البنائي، ذلك أنها معرفة قبلية قابلة للتجسيد في الواقع الذي يتجسد كعلاقة بين الفكرة والفعل، في حين يضع أرسطو السياسة مكان الهندسة ويعتبرها معرفة تقريبية وممارساتية للشيء المسمى "سياسيا"، على خلاف المعرفة الطبيعية التي يصعب إدراكها بشكل تام (Rockmore, 2005. p33).

يمكن القول بأن ما يوجد في الفلسفة اليونانية لا يعدو إلا أن يكون مجرد شذرات لبنائية تطورت تدريجيا كأسلوب وكإطار عام لفهم الواقع في زمن أقرب إلينا من الزمن اليوناني بكثير، حيث يعيد آندي لوك وتوم سترونغ نشأة النموذج البنائي إلى عصر النهضة، وتحديدا إلى أعمال فيلسوف التاريخ الإيطالي جيان باتيستا فيكو. كان النموذج التجريبي والعقلاني السائد في عصر النهضة موضع نقد خاص من فيكو الذي كان يرى على خلاف فلسفات ديكارت وسبينوزا بأن معرفة الواقع لا تكون بالحواس فقط، وإنما للتاريخ دور مهمّ في تكوين العقل البشري، فالإنسان كائن تاريخي لا يمتلك المعرفة إلا عبر الزمن. ويرى فيكو بأن الواقع ليس معطى وإنما هو نتيجة لإدراك البشر عن طريق معرفتهم، فالمعرفة البشرية هي التي تشكل الوحدة الأساسية في بناء مختلف الوقائع بعد أن تتكرّس كمكتسبات ثقافية (Lock & Strong,2010.p13) أو كمنجزات ثقافية cultural artefacts كما يسميها كلوس كريبندورف، وبذلك فإن هذا الباراديغم يعطي للغة مكانة خاصة في تحليلاته.

وتقوم فلسفة فيكو البنائية على مبدأ واحد هو: verum ipsum factum، وهذا المبدأ يعني بأن الناس لا يتعرفون على الحقيقة إلا في حدود الوقائع التي يقومون ببنائها بشكل نسبي ومتغيّر تاريخيا، وبالتالي فإن البشر لا يعرفون حقائق عن الطبيعة التي لم يقوموا ببنائها هم، كما أنهم لا يعرفون الحقيقة منقطعة عن سيرورتها التاريخية، ولا يفهمون الواقع إلا في حدود نوعين من المعرفة التي يمتلكونها: معرفة قبلية متعالية a priori ومعرفة بعدية تتأتى من التجربة a posteriori، وتترابط المعرفتان ضمن

سلسلة تاريخية تشكل ما يسميه فيكو خيال إعادة البناء l'imagination reconstructive (Lock & Strong, 2010.p18).

وعلى خلاف فيكو وعلى مقربة منه، يقدم عالم النفس السويسري جون بياجيه صيغة أخرى للمنظور البنائي تبحث أكثر في السقف الاجتماعي والبيولوجي للمعرفة (Littlejohn & Foss,2009.p179-180).يمكن رصد خارطة أعمال بياجيه ضمن عدة مباحث أبرزها الإبستيمولوجيا، علم نفس النمو وعلم النفس الاجتماعي. ويرى بياجيه بأن الأصل في المعرفة الإنسانية هو التطور وبأن مسألة التاريخ لا يجب أن تفصل عن سياق البحث الإبستيمولوجي وعن سياقها الاجتماعي (بياجيه،2004،ص35). وركز بياجيه أعماله على كيفية نمو المعرفة لدى الطفل وطريقة بنائه للواقع عن طريق اللغة والمنطق وعبر عمليتين إدراكيتين أساسيتين لتمكين الفرد من اكتساب التوازن الرمزي اللازم لمعايشة الواقع، وهاتان العمليتان هما: الاستيعاب والتكيف، فعبر الاستيعاب يمتصّ الفرد معاني الأشياء من دون أي تعديل على المعرفة المهيكلة داخل شبكته العصبية، في حين يقوم من خلال التكيف بإجراء تغييرات على معاني هذه الأشياء من خلال عملية التكيف، بحيث تخضع المعرفة التي يمتلكها لإعادة هيكلة (Littlejohn & Foss, 2009. p180).

ويبرز الباراديغم البنائي بوضوح في عمل جون سيرل المعنون بـ"بناء الواقع الاجتماعي" الذي يعدّ أهم المرجعيات البنائية. في هذا الكتاب، يفترض سيرل بأن الكثير من الظواهر الاجتماعية إنما تكتسب وجودها من خلال اتفاق الناس عليها، وهذا الاتفاق ينتج ما يسميه بـ"الوقائع المرتبطة بمؤسسة"، فيما تأخذ الآراء والتفضيلات والأحكام الأخلاقية نمطا آخر يسميه بـ"الوقائع الخام أو الخالصة" (سيرل، 2012. 33). يمثل النوع الأول من الوقائع المادة الملائمة للحصول على المعرفة العلمية، فمن خلال الاتفاق بين الناس على سيرورة الوقائع على نحو معين تتأسس المعرفة العلمية بناء على مبدأ الحسّ المشترك، وهو مبدأ يؤكد على أن الصدق يتأتى من الإجماع ومن البناء المشترك بين الأفراد (سيرل، 2012،ص 34).

يؤطر هذا البناء المشترك بطريقة ضمنية لكافة الأفعال والوقائع الاجتماعية، وبمقابل كل فعل في نظر سيرل، هناك أعباء ميتافيزيقية قد تكون معقدة أو ببسيطة، بحيث تشكل هذه الأعباء ما يسميه تلميذ أوستين "الخلفية" أو "البنية المستترة للواقع" (سيرل،2012، ص ص 37-38). وتمثل القصدية l'intentionnalité واحدا من بين أهم ركائز البنائية التي واجه بها سيرل كل الفكر الوضعي الذي يهيمن على تفسير الظاهرة الاجتماعية، وقد خصّص كتابا كاملا عنونه بـ"القصدية: مقال في فلسفة العقل" ليبين بأن معارف الإنسان التي تترجم عبر اللغة، التي يعطيها سيرل مكانة هامة مثل بقية البنائيين، لا ترتبط فقط بالتعبير عن شيء ما في الواقع، بل عن وضعيات معرفية أخرى كالقلق، التخمين، الاعتقاد، الرأي، ... وهي مسائل تبقى في خانة الوعي رغم أنها تفتقد لوجود أنطولوجي في الواقع (سيرل،2012،ص39).

ومن بين أشهر الذين أسهموا في بلورة البنائية الاجتماعية نجد عالم الاجتماع الألماني جورج سيمل، أحد أبرز مطوري أفكار ماكس فيبر، وبالتحديد فكرة النماذج المثالية les types idéals، فالأفراد برأي سيمل لا يقومون عن طريق اللغة والتفكير بفهم الواقع فقط، وإنما ببنائه بشكل مستمرّ بواسطة الإرادة، ذلك أن الأفكار وجدت لوظيفة معينة تتلاءم وأسباب وجودها ad hoc مثلها مثل أي شيء مادي، ووظيفتها الأساسية بحسب سيمل مزدوجة: فهم الواقع، وإعادة بنائه. وفي سياق الحياة الاجتماعية اليومية، فإن التفاعل بين الأفراد يكون بناء على تشكيل جملة تصورات حيال بعضهم البعض، وتبقى معرفة الفرد بذاته أمرا بعيدا عن المعرفة الاجتماعية (Ritzer, 2006.p 699).

إضافة إلى هذا، تشكل الفينومينولوجيا أحد أهم روافد الفكر البنائي، فقد أسس الفيلسوف الألماني إدموند هوسرل لتفسير للظاهرة الإنسانية متمحور حول الذات، بحيث رسم لنفسه نفس الهدف الإبستيمولوجي الذي قامت عليه البنائية، وهو الخروج عن التفسير الضيق الذي قدمته الوضعية والسلوكية (Le Ny, 2009.p 67). وإذا كانت فلسفة هوسرل مائلة للتنظير الإبستيمولوجي، فإن أبرز تلامذته ألفريد شوتز أعطى للفينومينولوجيا بعدا تحليليا اجتماعيا بالاستعانة كذلك بأعمال ماكس فيبر حول نظرية الفعل ذي المعنى. بقي المعنى في صلب اهتمامات شوتز بتأثير من أستاذه هوسرل، حيث يمكن فهم آليات بناء المعنى وفك شفراته داخل إطار اجتماعي يسميه شوتز في كتابه "فينومينولوجيا الواقع الاجتماعي" بـ"التذاوت" intersubjectivité، وهذا الإطار يحتوي على نمطين من الأفعال الاجتماعية ذات المعنى: الأفعال ذات مقصد الاتصال والأفعال من دون مقصد اتصال، فالأولى التي يسميها شوتز "أفعالا تعبيرية" يقوم خلالها الفاعل بتخريج وعيه وتجربته في غياب أي مادة للتجربة في الواقع، بحيث يدخل الآخر في دائرة وعي الأنا عن طريق الاتصال، والثانية تتم واسطة الإدراك الواعي عن طريق الحواس لما يقوم به الأفراد من سلوكات وتأويلها بناء على التجربة الذاتية وتقمص دور الآخرين باعتبارها "أنا آخر"، ولكن مع التأكيد على أن الفهم الدقيق لنوايا الفاعل ومقصديته تبقى خاصية حصرية للفاعل ذاته عن طريق فينومينولوجيا متعالية (Schutz, 1967. pp113-116).

3. البنائية الاجتماعية أو بناء الحقيقة الاجتماعية: يشكل مثل هذا التصور توطئة ملائمة لاستكشاف بعض الفلسفات الاجتماعية الأخرى التي ساهمت في تطوير المنظور البنائي، وفكرة التقمص التي تحدث عنها شوتز بالمناسبة هي طرح محوري في واحد من المنظورات المعروفة في العلوم الاجتماعية، وهو منظور "التفاعلية الرمزية" التي لم تأخذ مكانة مهمة كثيرا في البحث الاجتماعي بالنظر لأن كتابات أبرز مؤسسيها جورج هربرت ميد لم تجمع إلا بعد وفاته من طرف تلامذته في كتاب حمل عنوان "العقل، الذات والمجتمع ."

ويعطي الرمزيون للوعي مكانة أساسية في أبحاثهم برفقة مفهومي الذات والواقع، ومثلما يعتبر الفينومينولوجيون الذات العارفة في قلب حالة الوعي الإنساني، فإن الرواد الأوائل للرمزية مثل ميد، وليام جيمس، تشارلز كولي وهربرت بلومر، يأخذون بهذا الطرح مع بعض الاختلافات التي تتمركز حول موقع

الذات من الواقع: هل هي جزء منه أم منفصلة عنه؟، ولكن مع الاتفاق على أن كل الوقائع تنعكس داخل الذات التي تدخل في علاقات ووضعيات اجتماعية عديدة تغير شكلها، كما أن الذات تعكس نفسها للمجتمع أثناء التفاعل .(Danzin, 1992.pp 5-6) وكرد على النزعة الوظيفية، يرى الرمزيون بأن الواقعة الاجتماعية ليست معطًى، بل سيرورة تتشكل ضمن إطار الحالات الملموسة، من خلال التفاعل ومن خلال المعنى الذي يعطيه الأفراد لأفعالهم (كابان ودورتييه، 2010،ص115).

من الناحية السوسيولوجية كذلك، تمت الإفادة كثيرا من أفكار التفاعلية الرمزية في تطوير نمط من البحث تحت مسمى "الإثنوميتودولوجيا"، وهو الصيغة الإمبريقية للنظرية الرمزية. لقد حاول هارولد غارفينكل وآرون سيكورال تعزيز البحث الميداني الاجتماعي بتصور نظري جديد، حيث يمكن تفسير مختلف الظاهر بالاعتماد على ثنائية البنية الاجتماعية والثقافية المنشأة في سيرورة تاريخية سابقة على الممارسة من جهة، والإبداع والاختراع من قبل الفرد في كل ممارسة خطابية اجتماعية من جهة ثانية (هارمان، 2010. 62). ويلعب السياق الاجتماعي دورا مهما في تمظهر الأفعال الاجتماعية على نحو معين، حيث ينطلق الفاعلون من معرفة اجتماعية منفردة، غير أن سياق الفعل يبقى في علاقة دائمة بالنشاط الذي يقوم به الفاعل (ماتلار وماتلار، 2005، ص149).

ويغوص إيرفينغ غوفمان من خلال نظريته "الدراماتورجيا" في مفهوم الدور، فكل فاعل اجتماعي يقوم بدور معين في الحياة الاجتماعية تمليه التجربة، وضمن أطر هذه التجربة يقوم الفاعل بالعودة المرجعية للبنية الثقافية والاجتماعية، ولكنه سرعان ما يتخلى عنها وينساها بمجرد انتهاء التجربة. ويمثل إطار هذه الأخيرة لحظة فارقة لا للتحايل على البنية الاجتماعية والثقافية، وإنما على الطريقة التي يجب التصرف وفقها ضمن سياقات معينة.(Widmer, 1992.p 19)

ينبغي التأكيد في النهاية على أن المنظور البنائي أضحى يهيمن على قطاعات واسعة من البحث الإنساني والاجتماعي ، إذ تطورت أطروحاته بشكل أعمق بعد أن أصبح هجينا من الكثير من النظريات والتوجهات المنهجية المعاصرة القائمة على الدمج الراديكالي للأفكار والنسبية الثقافية لتجاوز أزمات المعنى والتمثل .(Donsbach, 2008.p947) يمكن أن نشير هنا إلى أعمال عالم الاجتماع الإنجليزي أنطوني غيدينز الذي أعاد صياغة التصورات حول الواقع الاجتماعي في ضوء النظريات الكبرى المهيمنة حاليا وقام بتقريب وجهة النظر البنائية إلى كل من البنيوية والوظيفية وحتى النقدية، حيث ينتقد غيدينز مفهوم البنية la structure الذي فرضه البحث البنيوي الفرنسي والوظيفية الأمريكية تحت مسمى النظام الاجتماعيle système social ، وهو مفهوم يلغي قدرة الأفراد على إنشاء الواقع ويكتفي بتصور الفرد كخاضع لمنظومة معينة من الأفكار والتصورات التي يكتسبها عبر التنشئة ويقوم باستهلاكها وإعادة إنتاجها عبر الأفعال الاجتماعية، ومثل هذا الطرح مشترك بين الوظيفيين، البنيويين والنقديين مع اختلاف في تحديد الطبيعة الأخلاقية لهذا الخضوع .

ويقترح غيدينز كبديل طرحا أكثر عمقا قائما على التأثير المتبادل بين الفرد والبنية تحت مسمى "السوسيولوجيا الانعكاسية" (غيدينز،2005،ص 733) ، ويقول في هذا الشأن بأنه لا زال هناك بالإمكان التأسيس لنظرية كبرى تؤسس على خلاف ما يراه ما بعد الحداثيون لتفسير الواقع الاجتماعي بالعودة للتأثير المتبادل بين الأفراد والبنى، بحيث يعمل الأفراد باستمرار على تجديد البنيات المعرفية ويعيدون الخضوع لها مجددا. ويظهر التأثير المتبادل بين الواقع الاجتماعي الذي يتخذ شكل بنية والفرد في نظر غيدينز من خلال عدم امتلاك الفرد لتفسيرات حيال سلطة الكثير من المؤسسات الاجتماعية التي ترتبط بها حياته من جهة، وقدرته في المقابل على خلق أشكال جديدة للسلوك الاجتماعي تتحدى هذه السلطات.

ويعتبر غيدينز "الانعكاسية الاجتماعية" بأنها الوعي الذي يملكه الأفراد بطبيعة الإكراهات التي تفرضها البنى على سلوكهم وإدراكهم لمقدرتهم على الإفلات من هذه الإكراهات، حيث يقول في هذا الشأن: "الانعكاسية هي أننا نقوم على الدوام بالتفكير في الظروف التي تكتنف حياتنا وتأملها والتمعن فيها، بما في ذلك أنماط السلوك والممارسات والأفكار التي نزاولها أو نحملها في حياتنا اليومية، وتظل لدينا في جميع الأحوال القدرة على التغيير والتعديل على الصعيدين الفردي والجماعي" (غيدينز،2005، ص 731).

ويشترك مع هذا الرأي أحد أبرز مفكري هذا العصر، الفيلسوف الألماني جورغن هابرماس، الذي ينتقد بدوره تراث المدرسة النقدية المتأثر بطرح ماركس حول تأثير البنى التحتية المادية على البنى الفوقية، ويؤسس من خلال نظرية الفعل التواصلي لتصور جديد في تفسير طبيعة الحياة الاجتماعية المعاصرة قائم على استخدام وسائل الإعلام الحديثة في تنمية النقاش حيال المسائل المشتركة في المجتمع وتكريس آليات الديمقراطية (غيدينز،2005، ص ص 726-727). وفي رأي هابرماس، فإنه من الخطأ الاعتقاد بأن النظام الاجتماعي قائم على تفييئات ذات معيار مادي كتلك التي وضعها إيميل دوركايم وكارل ماركس، والتي مردها تقسيم العمل على نحو يبدو مسبقا، وإنما هو في النهاية مجرد توافق عفوي بين مختلف الأطراف المشكلة للنظام.(Habermas, 1987.pp114-115)

وإضافة إلى هابرماس، تصنف أغلب التيارات الفكرية المعاصرة، وتحديدا تيارا ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة وما بعد الكولونيالية والنسوية في خانة المنظور البنائي، ذلك أنها تفتح الأفق الإبستيمولوجي على دور الفرد كفاعل لا يخضع بالضرورة لتأثيرات البنية المعطاة. ويمثل ميشال فوكو في نظر بعض الآراء أحد أبرز البنائيين في السنوات الأخيرة، حيث تأخذ فلسفته ما بعد البنائية بقيمة اللغة وانغراس الخطابات المتطورة تاريخيا في عمق الممارسة الاجتماعية .

في أكثر من كتاب، في "نظام الخطاب" أو "الكلمات والأشياء" أو "حفريات المعرفة"، تظهر الخلفية البنائية لأفكار فوكو، حيث يمكننا أن نقرأ في "حفريات المعرفة" نقدا لاذعا لفكرة التقليد التي ترتبط بمفهوم البنية الكلاسيكي في البنيوية، وتأكيده على أن الخطابات التي تتطور عبر التاريخ تتوزع على

الكثير من الوحدات: أفعال، ممارسات ووقائع، والتي إذا جمعناها وربطناها فيما بينها تعطينا تشكيلا أو بناءًا خطابيا موحدا (فوكو،1987، ص ص 21-23). ويعتبر فوكو بأن عمله المميز حول "أركيولوجية المعرفة" إنما يكشف عن وجود إرادات خطابية تتدخل في محطات تاريخية عديدة تشكل لحظات فارقة في الشكل الظاهري للخطاب .

لا يمكن بطبيعة الحال سرد كل التيارات والأعمال التي ساهمت في تغذية البنائية بافتراضاتها الجوهرية، لكن تجب الإشارة إلى ما بدأنا منه، والتذكير بأن تعدد هذه التيارات يمكن فهمه بابتكار تصنيف ثنائي: فهناك من جهة بنائية إبستيمولوجية تهتم بطبيعة المعرفة العلمية والحقيقة والصّدق، ولكن هناك بالمقابل بنائية اجتماعية تحليلية شكلت إطارا عاما لفهم ما يحدث في المجتمع، وسيكون لزاما علينا التطرق لكيفية تطبيق أساليب التحليل البنائي لفهم الوقائع الاجتماعية، للإفادة منها في فهم كيفية بناء صورة هيئات الإدارة العمومية من قبل المواطن في الجزائر.

تحت راية البنائية الإبستيمولوجية وداخل دائرة اهتماماتها، كانت هناك الكثير من المجهودات العلمية في حقل الدراسات الاجتماعية للقيام بإسقاط المقولات الإبستيمولوجية الكبرى للبنائية والخروج بها نحو آفاق التحليل الاجتماعي. نذكر أولا بأن المنظور البنائي الاجتماعي le constructivisme social الذي يهيمن اليوم على قطاعات واسعة من البحث في مجال الظواهر الاجتماعية كان رد فعل على الأزمة التي أضحت تعيشها العلوم الاجتماعية نتيجة فشل الوظيفية، كإطار نظري سائد بقوة، **على** تقديم نظرية كبرى تفسر الحياة الاجتماعية وانكفاء التيارات الراديكالية المعارضة عن التنظير باعتباره هروبا أو جبنًا أخلاقيا كما يقول ألفين غولدنر (غولدنر، 2004، ص45).

لم تكن سنوات السبعينيات التي أصدر فيها غولدنر كتابه الشهير "الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربي" هي سنوات التحوّل عن الوظيفية الاجتماعية، ففي السنوات الأولى للبحث الاجتماعي والبحث الأنثروبولوجي والألسني الاجتماعي المعاصر، كانت معالم منظور بنائي اجتماعي قيد التأسيس، وكان الهدف منذ البداية هو تقليص سقف الطموحات النظرية واعتماد مقاربة ثقافية نسبية un relativisme culturel.

توظف البنائية الاجتماعية خلفياتها الإبستيمولوجية لفهم الواقع الاجتماعي، وكان الفرض الأكثر ترديدا للقيام بهذه المهمة، على اختلاف درجات الإصرار وعمق الفهم، هو كون الأشياء الاجتماعية والثقافية التي تخضع للتحليل هي وقائع جوهريةsubstantielle ، وهي ليست معطاة ببساطة، وإنما هي نتيجة بناء مشترك بين الأفراد ضمن سيرورة تاريخية يمكن تتبعها ورصدها من خلال أفعال، ممارسات وعمليات اجتماعية .(Ritzer, 2005.p724)

وإحالة الأشياء إلى جوهرها نجدها مكونا رئيسيا في هيكلة البنائية الاجتماعية الجوهرية le constructivisme substantialisteالمتضمنة في أعمال عالم الاجتماع الألماني نوربرت إلياس،

أحد أشد نقاد وظيفية تالكوت بارسونز، والتي نجد معالمها النظرية بارزة في كتابه المؤسس "الانخراط والانسحاب: مساهمة في علم اجتماع المعرفة" وفي كتابه الآخر "مجتمع الأفراد."

ويفتح إلياس بابًا لمراجعة أساليب معرفة الحقيقة الاجتماعية من خلال نقده لفكرة النظام الاجتماعيle système social ، فالمجتمع ليس ترتيبا مستقرا للعلاقات الاجتماعية المفروضة على الأفراد، وإنما يجب الانتباه للفرق بين طبيعة العلاقات بين الأفراد في الحياة الاجتماعية، وبينهم وبين الدولة على سبيل المثال، فالعلاقات بين الأفراد تأخذ طابع الانخراط، بينما تأخذ مع الدولة طابع الابتعاد (Elias, 1993.p129)يظهر هذا الموقف النسبي على المستوى الجوهري من خلال قدرات تأثير الأفراد أو البنيات على التأثير في الأفعال، فالدولة بوصفها المالكة الوحيدة لشرعية العنف كما يقول ماكس فيبر لا تستطيع التأثير على وقف عنف الأفراد في مواقف عديدة .

ويمكن جر مثل هذا القياس على العديد من الأفعال والوقائع الاجتماعية كبيرة المدى، ولذلك فإن إلياس في كتابه "مجتمع الأفراد" يعرف لنا المجتمع ليس ككتلة من الأفراد الذين يتصرفون وفقا لإراداتهم الخاصة بشكل منعزل، ولا كنظام مجرد يفرض على الأفراد إتباع أنماط معينة من السلوكات، وإنما بوصفه حالة تراوح وتفاوض دائم بين نشاط الأفراد من جهة، وبنية النظام الاجتماعي من جهة أخرى، بحيث يكون المجتمع جوهرا وغاية أسمى لأفعال الأفراد التي تشكل "معانٍ.(Elias,2001.p9) "

يشكل مثل هذا التعريف الجوهري لماهية المجتمع وطبيعة تأثير الأفراد مقولة بنائية أساسية، يدعمها إلياس فيما بعد بفكرة أخرى مستلهمة من المنظور، وهي مبدأ التكوين أو التطور أو البناء التاريخي عبر الزمن، وهي فكرة يشرحها نظريا في كتابه "عن الزمن" بعد أن أخضعها للبحث التطبيقي في كتابه حول "عملية التحضر"، إذ يعتبر بأن حالة التراوح التي تؤسس الفعل الإنساني بين ضغط المجتمع وإملاءاته من جهة، ورغبات وحاجيات الأفراد من جهة أخرى، تبني تجربة زمن خاصة يعيشها الأفراد ضمن فينومينولوجيا اجتماعية يحاول فيها الربط بين ذاتيتهم وبين الهوية والنظام الاجتماعيين (Elias,1996.pp21-22).

اكتسب كتاب بيتر برغر وتوماس لوكمان الذي يحمل عنوان "البناء الاجتماعي للحقيقة" مكانة محورية في البحث السوسيولوجي لأنه يتخلى عن الأسئلة الأنطولوجية والإبستيمولوجية التي نجدها في أغلب التيارات البنائية، ويطرح بالمقابل أسئلة إمبريقية تقترب من روح علم الاجتماع عبر التعاطي مع المجتمع كواقع موضوعي، وذلك بالتخلي عن أسلوب التحليل الأكاديمي والتبرير الذي نجده حاضرا بقوة في المنظور الوظيفي، والاتجاه بدلا من ذلك إلى فهم الحياة اليومية عبر أسئلة من قبيل: ما الذي تقوم به مجموعة من الأفراد متمركزة في مكان ما وفي زمن ويمكن اعتباره واقعي؟ وكيف يمكن فهم هذا البناء من خلال شيء يقومون به؟ وكيف ترتبط تصوراتهم بسياق اجتماعي وتاريخي معين؟ وكيف تسهم هذه السياقات في اختلاف الواقع والبناءات المتباينة؟ .(Ritzer, 2005.p724)

نلاحظ بوضوح بأن موقف كل من بيرغر ولوكمان يختلف عن بقية أدبيات علم الاجتماع الرئيسية من دوركايم إلى ماركس إلى فيبر ونيتشه... ولكن بالانتهال منها، حيث يمكن اعتبار البناء المشترك للوقائع بين الأفراد أشياءً des objets كما يرى إيميل دوركايم تنتج عن أوضاع مادية معينة كما يقول ماركس، وعبر فهم معناها المعقد الناتج عن عمليات تركيبية مثلما يتصور فيبر (Berger & Luckmann, 1966. 17-20). ينجم عن هذا الدمج بين الرؤى مفهوم بنائي للمجتمع يشبه ذاك الذي قدمه نوربرت إلياس أو أنطوني غيدينز فيما بعد، أي بوصف الواقع الاجتماعي حالة تروح بين إرادة الأفراد وفهمهم لذواتهم من جهة، وبين خضوعهم لإملاءات النظام الاجتماعي بوصفه استمرارية تاريخية تتغذى من أفعالهم التي تأخذ طابع التواصل والتركيب والإمداد الدائم لسلوكات الأفراد، بحيث يمكن فهم المجتمع كما يقول بيرغر ولوكمان بوصفه "إنتاجا للأفراد وحقيقة موضوعية، بينما يكون الفرد إنتاجا اجتماعيا (Berger & Luckmann, 1966.p 61) "

ويستلهم هذان الباحثان من فينومينولوجيا شوتز ومن تفاعلية جورج ميد ليفسرا بشكل أعمق طبيعة العلاقة بين الفرد كفاعل، وبين البنية الاجتماعية كنتاج وكسبب لسلوك الفرد. وتمثل المأسسة l'institutionnalisation بنظر الباحثين الصفة الأساسية التي يتمتع بها الواقع الاجتماعي كموضوع، فعالم البشر، على خلاف بقية الحيوانات، عالم مفتوح على التطور الاجتماعي والثقافي الذي ينعكس على سلوك الفرد في علاقة ثنائية مستمرة التأثير، يقوم الأفراد من خلال بتأسيس الكثير من البنيات المعرفية المتضمنة في مختلف أفعالهم وممارساتهم الاجتماعية والثقافية التي تتفوق في تأثيرها على العوامل البيولوجية.

إن المأسسة هي عملية التأسيس والترميم والتطوير الدائم لمختلف مكونات الواقع الاجتماعي، وهذه العملية لا تُنجَز من قبل الفرد في عزلته، وإنما بالاشتراك مع الآخرين عن طريق التفاعل. وتمثل اللغة والمعرفة الأداة الرئيسية للتفاعل بين الأفراد، حيث تتشكل الذات بطريقة تكوينية génétique عن طريق التنشئة قبل أن تشرع هذه الذات التكوينية في الاشتراك في عملية البناء (Berger & Luckmann, 1966. p68).

وتتم عملية مأسسة النظام الاجتماعي من خلال بناء نماذج للسلوكات والأفعال المتكررة التي تنتج معانٍ روتينية في وعي الإنسان، وفي بعض الأحيان، ينتج هذا الروتين مع الوقت نوعا من الضغط على الخزان المعرفي للأفراد ويفسح المجال أمام تجديد، تحرير وتحيين نماذج السلوك (Berger & Luckmann, 1966. pp70-71). تظهر عملية التأسيس هنا متغيرة باستمرار، حيث تلقى نماذج السلوك شرعية اجتماعية ضمن سيرورة تاريخية وضمن نسبية ثقافية قائمة على مرونة النظام الاجتماعي وعدم استقراره نهائيا. تقول فيفيان بور، إحدى أبرز من شرحوا البنائية الاجتماعية، بأن ملاحظة ما يحدث داخل الحياة الاجتماعية في لحظة معينة مثلما يدعي الوضعيون لا يقدم معرفة نهائية بالوقائع التي تبقى منفتحة دوما على تأثيرات الثقافة والتاريخ، بحيث تضمن معرفة الأفراد تجددها من خلال

التحيين الذي يعتري العمليات الاجتماعية.(Burr,2003.p5) ومن خلال التفاعل الاجتماعي، يتم تقبل هذه المعارف الجديدة التي تؤسس لنماذج مبتكرة من السلوك، تلقى التجاوب من قبل الأفراد وتحظى بالشرعية، ويطلق بيرغر ولوكمان على هذا التجديد "ترميم العوالم الرمزية."

4. التأسيس لنظرية بنائية في الاتصال:

يجب التنبيه أولا إلى أن التركيز الدائم على أهمية ومحورية اللغة في الإبستيمولوجيا البنائية راجع بالأساس إلى الحضور القوي للبحث الألسني والاتصالي في الفلسفة المعاصرة، وخصوصًا في الموجة الأخيرة من الفلسفة الألمانية بقيادة جورغن هابرماس ونيكلاس لوهمان تحت مسمى تركيبي: "البنائية النقدية". قد نجد صيغتين مختلفتين لنظرية بنائية محتملة في الاتصال من خلال النقاش الذي دار بين هذين الباحثين في بداية الثمانينيات، ولكننا سنجد اتفاقا بينهما على منطلق بنائي واحد، بأن العالم ليس سوى تشكيلا من الأفراد والإمكانات الثقافية والاجتماعية للمعاني والتجارب. وفي نفس الوقت، يمكن أن نعثر على نظرية بنائية في الاتصال في الفلسفة ما بعد البنيوية للمفكر الفرنسي ميشال فوكو وهي كلها في الأصل تعتمد على مقاربة ماكس فيبر لواقع الحداثة في المجتمع المعاصر .(Langer, 1999. 77).

وفيم يتناول هابرماس الواقع الاجتماعي من خلال العقلانية التي يقابلها فعل الاتصال، بحيث يمثل الاتصال سقف الفهم الاجتماعي لما هو ممكن، ولا يتهدد هذا السقف سوى طغيان الأفعال الذرائعية الإستراتيجية، يقول لوهمان بأن الاتصال هو فعل غير ثابت وغير مستقر ينتج ويعيد باستمرار إنتاج الواقع الاجتماعي، غير أنه يبقى فعلا مهددا للبناء الاجتماعي لأن الفاعلين يعتقدون بأنه بإمكانهم الاتصال والتفاهم كلية .(Langer, 1999.p78)

تميل وجهة نظر لوهمان أكثر إلى تصور متطرف لبنائية المشكلات الاجتماعية في صيغة قد تفسر إخفاق عملية البناء وفقا لرؤية مضادة للحس العام، بينما تنسجم رؤية هابرماس مع بنائية بيرغر ولوكمان التي تنظر أكثر في كيفية بناء الواقع بواسطة الاتصال، مع تطعيمها بجرعة نقدية من خلال التضاد الذي يؤسس له هابرماس بين فعل الاتصال والفعل المعرفي–الذرائعي.

في نظريته حول فعل الاتصال، يؤسس هابرماس لهذا التضاد ويقدمه بطريقة بنائية متكاملة في كتابه "الفضاء العمومي"، حيث يقترن فعل الاتصال بجوهر عملية البناء الاجتماعي لأنه يفسح المجال لمشاركة الأفراد في صناعة شكل المجتمع بطريقة متواصلة، والفضاء العمومي في نظر هابرماس ليس سوى أحد أبرز أشكال البناء الاجتماعي التي مكنت الأفراد من التصدي للهيمنة المطلقة للدولة وتأسيس منصات اجتماعية لنقدها (دي لافيكتوار،2013. ص53). وبالنسبة لهابرماس، فإن وسائل الإعلام في المجتمع المعاصر أصبحت تشكل النموذج الأبرز للفضاء العمومي لأنها تجر الفرد إلى الدخول في دائرة النقاش العام .

بالمقابل، تنطلق عملية الاتصال، أو التفاعل الاجتماعي، بحسب لوهمان، من خلال افتراض كم معقد من التصورات الممكنة للحياة الاجتماعية عند الأفراد، وبناء على الاتصال ولصدفة مجهولة ولا يمكن التنبؤ بها يتم الاستقرار على أحد التصورات ليصبح عالما حقيقيا، فالاتصال يسمح للأفراد بخفض مستوى تعقيد التصورات الممكنة، فالاتصال برأيه هو الإطار الذي يحتوي إمكانية نشأة نظام اجتماعي ليس وفقا لإرادة أي فرد، وإنما بناء على صدفة قد تجمع الأفراد على شكل معين للواقع الاجتماعي، وقد لا تفعل ذلك، وهذا ما يسميه لوهمان بـ"الاحتمال المزدوج la double contingence(Amado, " 1989. p16).

إن أي علاقة بين الأفراد أو الجماعات وبغض النظر عن انتهائها إلى أحد طرفي الاحتمال المزدوج قائمة بالأساس على تبادل المعنى، وهي بذلك تأخذ طابع الاتصال، حيث يمثل هذا الأخير الأساس الذي يبنى عليه النظام الاجتماعي كواقع، وهذا المنظور التداولي يقدس فعل الاتصال بوصفه جوهر النظام الذي لا يقوم من دونه، ولكن يجب النظر للاتصال بوصفه لترتيب الخيارات الممكنة للواقع، فهناك احتمال وارد جدا لتقويض النظام كلية.

يظهر احتمال تقويض النظام من خلال وسائل الاتصال الجماهيري التي يرى لوهمان بأننا نتلقى كل معرفتنا بالعالم عن طريقها، ولكن يجب الانتباه لحجم "الاختلاف la différentiation "بين الأفراد في تلقي محتوياتها وفهمه، والسبب يرجع إلى طبيعة الاختلاف بين الأنظمة الفرعية للنظام الاجتماعي الشامل، وفي مقدمتها الفرد الذي يشكل نظاما معرفيا عالي التميز. وعبر وسائل الإعلام التي تشكل بدورها نظاما معرفيا متفردا، فإن حضور الوسيط التقني مكتوبا أو بصريا أو غير ذلك يجعل من عملية التفاعل اللازمة لكي نصل إلى فرضية الاحتمال المزدوج أمرا صعبا للغاية، ولكنه ممكنا ,Luhmann) 2000. pp2-3).

يؤمن لوهمان بقدرة وسائل الإعلام على بناء الواقع الاجتماعي بوصفها ذاتية une subjectivité، ولكن موقفه النسبي، أي الذي يرتبط بإمكانية أن تفشل في عملية البناء بسبب اختلاف الذاتيات الأخرى مثل الفرد، يعتبر نقدا مباشر للمقولة الوظيفية التي تعتبر تأثير وسائل الإعلام أشبه بالسحرية.

في المرتبة الثالثة، يمكن أن نتتبع ملامح نظرية بنائية في الاتصال ضمن أعمال متعدد العلوم الفرنسي ميشال فوكو، والمتمحورة بالأساس حول الذات الخطابية وممارساتها المؤطرة والمهذبة عبر التاريخ. سنجد في كامل أعمال فوكو الكثير من المقولات البنائية الأساسية التي تدور حول محور الاتصال، ومن خلال تجاوزه للألسنية البنيوية إلى ما بعد البنيوية، يقدم لنا مفهوما خاصا للخطاب باعتباره الصلة التي تربط بين الفرد وذاته وفقا لقواعد معينة تؤطر لتصوّرات الفهم الصحيح والتصرف المرغوب ضمن ما يتيحه الخطاب الثقافي من ممكنات، ويمكن أن تقوم الذات بتحدي هذا الخطاب وبناء تصور آخر ممكن يظهر كحقيقة ويتم تبنيه بحرية.(Lock & Strong, 2010. p253)

تؤكد هذه الفكرة على محورية اللغة مجددا ضمن مختلف الممارسات والأفعال، فالخطاب باعتباره إنتاجا للغة وللرموز يمثل في نظر فوكو بابا مناسبا لنظرية بنائية في الاتصال تؤمن بالعلاقة التبادلية بين الذات والمجتمع، بالتهذيب la discipline الذي يفرضه المجتمع، والحرية التي تتمتع بها الذات في بناء حقائق ومعارف متجددة. وفي كتابه "حفريات المعرفة"، يعرض فوكو مقاربة نظرية تاريخية ثقافية تذهب إلى أن البشر يعيشون في عوالم الخطاب، وبأن للخطابات تصنيفات مبعثرة في التاريخ يمكن إعادة تجميعها بمراعاة سيرورة تطورها كجوهريات، دون الاكتراث للوقائع (فوكو،1987، ص ص 22-23)

تتقاطع فكرة فوكو حول جوهرية الوقائع التي يعكسها الخطاب مع فكرة نوربرت إلياس عن المجتمع بوصفه جوهرا، غير أن فوكو يبرز بوضوح تاريخانية الجوهر من خلال مفهومه حول التشكيلات الخطابية .les formations discursives ينتج التشكيل الخطابي من تركيبة مجموعة من الملفوظات التي تتغير باستمرار، وحين تتبعها تاريخيا يمكن اتخاذها كحفريات أو أرشيفات يتم البحث في طريقة تغيّرها عبر التعاقب والاشتقاق، أحد أهم مبادئ التحليل البنيوي، على أن يكون الهدف ليس كشف حقيقة التعاقب فقط، وإنما إستراتيجياته وأهدافه (فوكو،1987، ص ص 154-156).

يعكس فعل التعاقب في التشكيلات الخطابية بحسب فوكو إرادة الحقيقة المتغلغلة في ذاتية الأفراد، والطابع المستمر لإعادة تأسيس الخطاب الثقافي والاجتماعي المفروضة كنظام غير مطلق. برأي فوكو، فإن الكثير من الحقائق والمعارف الجديدة تقابل بالرفض باعتبارها "مسخا معرفيا" لا يلقى الترحيب في بعض الدوائر العلمية والاجتماعية، ولكن إعادة تأسيس النظام وفقا لرؤى أخرى تسمح باعتماد المعارف الجديدة (فوكو، 2007. 18-19). ينطبق هذا التحليل على طبيعة المعرفة المتداولة في الحياة الاجتماعية، حيث يعتري التعديل كثيرا من الخطابات على نفس المنوال.

تمثل أعمال هابرماس، لوهمان وفوكو أشهر الإسهامات من أجل تأسيس باراديغم بنائي يعنى بظاهرة الاتصال، ولكن كانت هناك بالمقابل بعض الاتجاهات والمدارس الأخرى التي قدمت صياغات أخرى للنظرية، ويمكن هنا ذكر مدرسة نيوشاتل السويسرية بقيادة جون بليز غرايز، ونظريته حول النمذجةla schématisation ، وهي تصور نظري يعتبر بأن كل العلاقات بين الأفراد قائمة على نماذج رمزية des schémas symboliques تنتج المعنى من تفاعل ذاتيات الأفراد ويتم بناؤها عن طريق اللغة التي تشكل بدورها بناء سوسيو-تاريخيا مستمرا بفاعلية الأفراد أثناء الاتصال (Littlejohn & Foss, 2009.pp181-182).

وفي أمريكا الشمالية، تأثر البحث في الاتصال بالمنظور البنائي بعمق، وانقسمت الأبحاث على شكلين من البنائية :(Donsbach, 2008.p 948) نظرية بنائية عامة حول الاتصال اتخذت من التفاعل والاتصال بين الشخصي إشكالية عامة لها، وهنا يمكن الإشارة إلى أعمال جيسي داليا ورفاقه العام 1982، والتي تمحورت حول فعل البناء والبنيات الذهنية التي تخزن المعارف حول خصائص

الأشياء، مقاصد الأفراد والحالات العاطفية للآخرين. وبالمقابل هناك نظرية بنائية ذات طابع براغماتي انتشرت بأمريكا حاولت الاهتمام أكثر بدور وسائل الإعلام تحديدا في بناء الواقع الاجتماعي، مثل دراسات يار عام 2005 حول بناء الواقع عن طريق الأخبار عن طريق تفكيك بناء الخطاب الصحفي وسبل تأطير الصراعات بمفهومها الإيديولوجي.

ومن بين أشهر المدارس ذات التوجه البنائي في الاتصال المدرسة الإيكولوجية تحت قيادة غريغوري باتيسون وبول واتزلاويك، من خلال أطروحتها حول "إيكولوجية العقل"، حيث تحول اسم المدرسة فيما بعد إلى "بالو آلتو" إحدى أهم الروافد الجديدة لعلوم الاتصال. وتشدد هذه المدرسة على أن الواقع يبنى عن طريق الاتصال بين الأفراد، ولكنها تعارض بشدة التوجهات الإمبريقية والكمية، وتنادي بالمقابل بتطوير منهجيات كيفية يبرز شكلها أحد أبرز معالم هذه النظرية عالم النفس الألماني إرنست فون غلارسفيلد في كتابه "البنائية الراديكالية"، وبحسبه فإن أي استخدام للغة يصنع المعنى بحسب سياقات الاتصال، وبالتالي فلا فائدة من تتبع ترددات الاستخدام (Littlejohn & Foss, 2009. p 182).

ولا يمكن هنا التغافل عن إسهامات السوسيولوجي الألماني كلاوس كريبندورف حول نظرية الأنظمة المستمدة من أعمال السوسيولوجي الفرنسي برونو لاتور، والتي كان لها بالغ الأثر في تأسيس حقل الاتصال التنظيمي .(Littlejohn & Foss, 2009.p183)

ويمكن اعتبار أعمال كينيث بولدينغ أحد أهم محاولات تقديم نظرية بنائية في الاتصال، حيث تتقاطع بصورة واضحة مع أطروحات جون بياجيه مع تطعيمها ببعض الأفكار من التفاعلية الرمزية لجورج ميد. يستعير بولدينغ من بياجيه مفهوم "البنية التطورية la structure génétique "ويعطيه بعدا أقرب لمفهوم الصورة الذهنية، فيقول بأن هذه البنية تمثل طريقة وقدرة على بناء نمط ذهني ظاهري phenotypeللأشياء كما هي في الواقع، ولكن بشكل مستقل عن الشيء، أي أن هذه البنية تمتلك استقلالية عن الأشياء رغم أنها تحاكيها وتمثلها وفقا لعناصرها وخصائصها (Boulding,1956. p28)

تلتقي هذه الفكرة مع بقية الأطروحات البنائية بخصوص استقلالية عالم التمثلات، بدءا من المدارس الألسنية الحديثة القائمة على فكرة دو سوسير حول استقلالية اللغة، إلى المدارس الفينومينولوجية التي تؤكد على وعي الذات بوصفه محورا للتفسير .

وأمعن بولدينغ في كشف مسارات وعي الصور الذهنية بالعودة إلى تفسيرات بيولوجية وكيميائية معقدة كتلك التي قدمها بياجيه، حيث أكد على وجود مستويات عديدة تسمح بتلقي، بث، حفظ وتنظيم المعلومات التي تختزنها الصورة التي تمثل آلية الفهم الرئيسية في المجتمع (Donsbach,2008.p34)

وينسجم بولدينغ مع المقولات الألسنية للبنائية حين يشير إلى أن الصورة ما هي إلا علامة a signولكنها تبقى كصورة ذهنية المكون الرئيسي في العالم الرمزي للإنسان لأن الأصوات والروائح

والكلمات المكتوبة بوصفها علامات تنتهي في الأخير لأن تصبح صورا ذهنية مختزنة (Boulding, 1956.p44).

وفي إطار الحياة الاجتماعية، يتداول الأفراد على خلاف بقية الحيوانات بحسب بولدينغ الكثير من الرموز والعلامات التي توحي بما يسميه خيالاan imagination ، ويتغير العلامات والرموز عبر التاريخ، وهذا بعد أساسي في الفكر البنائي، تتغير قدرات خيال الفرد الذي تختزن صورا للأشياء التي تحيل إليها العلامات، وسمة التغير التي قد تعتري خيال الفرد الحاضن للصور الذهنية قد تتغير تبعا لمحورين اثنين :(Boulding, 1956.p44)

–محور الثبات/عدم الثبات في الصور: حيث يرتبط هذا البعد بتدخل للقيم والعواطف، فينجم عن هذا التدخل أننا نشكل صورا أكيدة وثابتة حول بعض الأشياء في حين نرتاب من صور أشياء أخرى، وهذا المحور في التغيير يرتبط بالفرد لا بالصورة .

–محور الواقعية/اللاواقعية في الصورة: وهنا تتدخل العناصر الإدراكية والمعرفية بقوة، بحيث نشكل صورا عن أشياء باعتبارها حقيقية وواقعية لأنها في متناول إدراكنا، في حين نشكل صورا غير واقعية عن أشياء من خلال الأساطير والأحلام. ومحور التغيير هنا يرتبط بالصورة في حد ذاتها، ومدى ارتباطها بأشياء موجودة في الواقع رغم عنا .

ضمن هذين المحورين، يعتري خزان الصّور الذهنية التي يمتلكها أي مجتمع تغييرات عديدة ترتبط في نظر بولدينغ بعدة عوامل أهمها كثافة عمليات الاتصال داخل المجتمع، وكذلك من خلال الحركية الديمغرافية للمجتمع، حيث يؤدي تغيير الأفراد عبر آلية الولادة/الوفاة، ومن خلال توالي الأجيال وحركية السن بالنسبة للفرد الواحد(Boulding,1956.p56) ، وهذه الفكرة توجد في صميم مقولات علم نفس النمو التي يقترحها بياجيه.

خاتمة:

يتضح مما سبق بأن اعتماد نظرية بنائية في الاتصال مسألة ممكنة للغاية، وذلك بالنظر لما يقترحه الفكر البنائي من قراءات نظرية عميقة حول سير العمليات الاجتماعية والطبيعة الديناميكية للنظام الاجتماعي من خلال التركيز على ما يقوم به ويفهمه الفاعلون، لا بناء على مفهوم ستاتيكي مسبق للنسق قد يقود إلى حصر فهم الباحث الاجتماعي لطبيعة فعل الاتصال وأدواره الخلاقة في الحياة الاجتماعية.

تبقى مسألة الإفادة من النظرية البنائية في الاتصال من قبل الباحثين في هذا الحقل مرتبطة بإرادتهم في ذلك، فكثرة الاعتماد على النموذج الوظيفي وتجنب النموذج النقدي بالنظر لحاجته إلى برهنة من نوع خاص على الحقائق التي يقدمها، قادا في النهاية إلى وقوع شبه عجز من قبل الباحثين في حقل الاتصال على تطوير دراساتهم والارتقاء بها نحو آفاق بحثية جديدة على الرغم من أن البنائية تمثل بالفعل توجّهًا مفتوحا على كل القراءات الممكنة.

قائمة المراجع:

أولا – المراجع باللغة العربية:

– ألفين غولدنر، ترجمة: علي ليلة (2004): الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربي ، القاهرة، المركز القومي للترجمة.

– آرمان ماتلار وميشال ماتلار، ترجمة: نصرالدين لعياضي والصادق رابح (2005): تاريخ نظريات الاتصال، بيروت، المنظمة العربية للترجمة.

– أنطوني غيدينز، ترجمة: فايز الصياغ (2005): علم الاجتماع، بيروت، المنظمة العربية للترجمة.

– جاك هارمان، ترجمة: العياشي عنصر (2010): خطابات علم الاجتماع في النظرية الاجتماعية، عمان، دار المسيرة للنشر والتوزيع.

– جون بياجيه، ترجمة: السيد نفادي (2004): الإبستيمولوجيا التكوينية، دمشق، دار التكوين.

– جون سيرل، ترجمة: حسنة عبد السميع (2012): بناء الواقع الاجتماعي: من الطبيعة إلى الثقافة، القاهرة، المركز القومي للترجمة.

– فيليب كابان وجان فرانسوا دورتيه، ترجمة: إياس حسن (2010): علم الاجتماع: من النظريات الكبرى إلى شؤون الحياة اليومية، دمشق، دار الفرقد للنشر والطباعة والتوزيع.

– كوينتين دي لافيكتوار، ترجمة نورالدين علوش (2014): مفاهيم المواطنة والفضاء العمومي عند حنة أرندت وهابرماس: استمرارية السياسي من العصور القديمة إلى الحداثة. مجلة إضافات. العدد 22.

– ميشال فوكو، ترجمة: سالم يفوت (1987): حفريات المعرفة، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي.

– ميشال فوكو، ترجمة: محمد سبيلا (2007): نظام الخطاب، بيروت، دار التنوير للطباعة والنشر.

ثانيا – المراجع باللغة الأجنبية:

–Alfred Schutz (1967): The phenomenology of the social world, New York, Northwest University Press.

-Andy Lock & Tom Strong (2010): Social Constructionism, Sources and Stirrings in Theory and Practice, New York, Cambridge University Press .

-George Ritzer (2005): Encyclopedia of social theory, London, Sage Publications.

-Gilles Gauthier (2004): Journalisme et réalité; L'argument constructiviste. Communication et langages, N°139. pp. 17-25.

-Juan Antonio Garcia Amado (1989): Introduction à l'oeuvre de Niklas Luhmann, Droit & Société, N° 11-12. pp. 15-52.

-Jurgen Habermas (1987): The theory of communicative action. Part 2, Boston, Beacon Press.

-Kenneth Boulding (1956): The image: Knowledge in life and society, Michigan, University Of Michigan.

-Marc Le Ny (2009): Découvrir la philosophie moderne, Paris, Eyrolles.

-Nicholas Abercrombie (2006): The Penguin dictionary of sociology, London, Penguin Books .

-Niklas Luhmann (2000): The reality of mass media, California, Stanford University Press.
-Norbert Elias (1996): Du temps, Paris, Fayard .
-Norbert Elias (1993): Engagement et distanciation; contributions à la sociologie de la connaissance, Paris, Fayard.
-Norbert Elias (2001): The society of individuals, New York, Continuum .
- Norman Danzin (1992): Symbolic interactionism and cultural studies; the politics of interpretation, Oxford, Blackwell.
-Peter Berger & Thomas Luckmann (1966): The social construction of reality; A treatise in the sociology of knowledge, London, Penguin Books.
-Roy Langer (1999): Towards a Constructivist Communication Theory? Report from Germany, Nordicom Information, Vol. 1. No 2. pp. 75-86.
-Stephen Littlejohn & Karen Foss (2009): Encyclopedia of communication theory, California, Sage Publications .
- Tom Rockmore (2005): On constructivist Epistemology, Meryland, Rowman & Littlefield Publishers .
-Vivien Burr (2003): Social constractionism, London, Routledge.
-Wolfgang Donsbach (2008): The international encyclopedia of communication, Malden, Blackwell publishing LTD .
-Yves Chevalier (2004): Le savant, le sorcier et l'artiste; Le constructivisme en question, Communication et langages, N°139, pp. 5-15.